المعرفة الدّينيّة والمعرفة التاريخيّة

أ.م.د. السيّد حسين فلاح زاده (*)

ترجمة: حسن الحمداني

ملخص البحث

يحتلّ كلٌّ من المعرفة الدّينيّة والتاريخيّة مساحةً مهمّةً من دائرة المعارف الإنسانيّة، ولهما تاريخٌ قديمٌ بقدم الإنسان، وبقراءة حياة الإنسان الأوَّل، يتّضح منزلة الفكر الدّيني لدى الماضين، فيما أثبتت البحوث الأثريّة ميول الإنسان القديم للدّين، كما إنَّ دفن الأشياء الحياتيّة مع الموتى، مؤشّرٌ واضحٌ على اعتقاد هؤلاء بعالم ما بعد الموت؛ وهي مقولةٌ دينيّةٌ بإمتيازٍ، ومن الأدلّة على حضور الدّين في تلك المجتمعات تعدّد أسماء الآلهة مثل: زئوس، واهوارمزدا، واناهيتا، ومردوك وغيرهم، ووجود تماثيلها عند مختلف الأقوام، وكذلك وجود الأماكن الدّينيّة في الآثار الباقية من الحضارات القديمة، ومضافاً إلى ما تقدّم، فإنَّنا نشهد حضور الشخصيّات الدّينيّة؛ كموبدان ومغان الذين تقع على عاتقهم مسؤوليّة فهم الشرائع الدّينيّة آنذاك.

وللمعرفة التاريخيّة نفس هذا العمق في الحياة البشريّة القديمة، إذ كان الإنسان على الدوام مولعاً بالأساطير والقصص - التي كانت بحدّ ذاتها نوعاً

(*) استاذ مساعد في قسم التأريخ، جامعة باقر العلوم، ايران ، قم المقدَّسة.

من التاريخ- للتعرّف على حياة الماضين، ولو تصفحنا النصوص الأدبيّة للشعوب المختلفة لتسنى لنا معرفة موقع البحث في التاريخ الواسع من حياتهم، والذي يتماهى مع موقع البحث الدّيني عندهم.

وكمثالٍ على ذلك: ما نشهده في تاريخ إيران القديم، حيث تقع إلى جانب التصوّرات الدّينية القديمة المرتبطة باهورامزدا واهريمن، قصّة ظهور أوّل إنسان (كيومرث)، وكذلك قصص موت أولاده: سيامك وهوشنك وجمشيد وفريدون، وظهور (بيشداديان) من بعدهم في سلسلة كيانيان.

ومن شخصياتهم: قباد وكي كاووس، وظهور بهلواناني أمثال نريمان وسام وزال ورستم، وكذلك نلحظ في هذا المقطع من تاريخ إيران، الألواح والمكتوبات التي تشكّل بحدّ ذاتها نوعاً من كتابة التاريخ بقصد نقل أخبار الماضين إلى الأجيال الآتية؛ نقوش بيستون، وكنج نامه وأمثال ذلك.

إذن، فالمعرفة التاريخيّة كالمعرفة الدّينيّة لها جذورٌ تاريخيّةٌ عميقةٌ، ويمكن أيضاً التماس هذا التاريخ في نقاطٍ أخرى من العالم.

ليس هذا المقال بصدد معرفة تاريخ وماهيّة المعرفة الدّينيّة والتاريخيّة، بل بصدد بحث الأرتباط بينهما بعد تقديم تعريفٍ إجماليٍّ عنهما، والأسئلة الأساسيّة والمحوريّة هنا هي: ماهي أوجه التشابه بين المعرفة الدّينيّة والمعرفة التاريخيّة؟ وماهي أوجه الاختلاف؟ وماهو الارتباط بين هذين المجالين في المعرفة الإنسانيّة؟ وما هي حاجة كلٍّ من المعرفة الدّينيّة والتاريخيّة لبعضهما؟

مدخلٌ

المبادئ التصوّريّة

تعني كلمة الدّين في اللغة العربيـة، الطاعـة والجـزاء والمكافئـة، (دان لـه بمعنى أطاعه)، والدّين جمع أديانٍ بمعنـى الطاعـة (الجـوهري، ١٤٢٦: ج٥، مادة دين)، والدّين في اللّغة الفارسيّة بمعنـى الطريقـة والـشريعة والجـزاء في مقابل الكفر، وبمعنى مجموعة القواعـد والأصـول التـي تقـرّب الإنـسان إلى الله[1].

يعتقد العلّامة الطباطبائي بأنَّ الدّين هو منهج حياةٍ يضمن صلاح الـدنيا بما يتوافق مع الكمال الأخروي والحياة الحقيقيّة الدائمة.

وقالوا: بأنَّ التـاريخ يرجـع إلى عـدّة جـذورٍ منهـا: أرّخ الـشهر واليـوم وغيره؛ بمعنى جعل لها وقتاً وتوقيتاً.

وقد عرّفوه: تعيين مدّةٍ من بداية أمرٍ عظيمٍ قديمٍ مـشهورٍ إلى ظهـور أمـرٍ ثانٍ يأتي بعده، وظهور الأمر الثاني ملحوظٌ فيـه مـدّة الأمـر القـديم المـشهور الأوَّل(دهخدا، ج٤)، وكذلك المعرفة التاريخيّة تطلق على ما ينقله المؤرّخـون عمَّا حدث في الماضي ، المبتني على سوق الشواهد والأدلّة.

وطبقاً لمفهومي (المعرفة الدّينيّة) و(المعرفة التاريخيّـة) المـضافين، فالـدّين عبارةٌ عن أصل الرسالات السماويّة، والتاريخ هو نفس الحوادث المنصرمة.

وعلى هذا الأساس، فحقيقة المعرفـة الدّينيّـة هـي المعرفـة البـشريّة التـي

تستهدف فهم وتفسير أصل ومضامين الرسالات السماويّة، والمعرفة التاريخيّة هي المعرفة البشريّة التي تستهدف توصيف وتحليل وتبيين حوادث حياة الإنسان في الماضي، وقرائتها مرةً أخرى، وإن كان إستخدام أحد المفهومين مكان الآخر كثيراً من باب المسامحة في التعبير أو حصول الاشتباه.

وجوه المغايرة بين المعرفة الدّينيّة والمعرفة التاريخيّة

يبدو للوهلة الأولى أنَّ المعرفة الدّينيّة والتاريخيّة مقولتان مستقلتان عن بعضهما، ولا يوجد إرتباطٌ بينهما، ولاتوجد أوجه شبهٍ بينهما، بل توجد وجوه مغايرةٍ كثيرةٌ ومهمّةٌ بنحو يمكن فرضهما شيئين متباينين.

والاختلاف الأساسي بين المعرفة الدّينيّة والمعرفة التاريخيّة يرجع إلى موضوع كلٍّ منهما، فالدّين الذي تبحث عنه المعرفة الدّينيّة، أمرٌ غيبيٌّ سماويٌّ يتّصل بالوحي ليس للإنسان دخلٌ في صياغته، بينما الحوادث التاريخيّة التي يحاول المؤرّخون معرفتها عبر المعرفة الدّينيّة، ما هي إلَّا أفعال الإنسان، فالتّاريخ صنعه الإنسان، والدّين ليس منتجاً بشريّاً، بل منشؤه ما وراء الطبيعة وأمر الإله، فالدّين صناعةُ الخالق والتّاريخ صناعةُ المخلوق، فالأوَّل يبحث معرفة شريعة الله، والثاني معنيٌّ بدراسة أفعال بشرٍ مخلوقين مضى عليهم الزمان.

وعلاوةً على ما مرّ، يحظى الدّين والمعرفة الدّينيّة بأهميّةٍ تفوق المعرفة التاريخيّة؛ حيث أنَّ وجود الدّين وعدمه مرتبطٌ بسعادة وشقاء الإنسان، بينما المعرفة التاريخيّة ليس لها هذه القيمة، فضلاً عن أنَّ حياتنا المعنويّة تستند إلى المعرفة الدّينيّة، بينما ليس للمعرفة التاريخيّة هذه الميزة، ويحتمل أن يكون ذلك سبباً في إعتبار العلم الدّينيّ أحد أهمّ علمين في الحياة «الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمُ الْأَدْيَانِ، وعِلْمُ الْأَبْدَانِ»[٢].

وبالنّظر إلى تلك الأهميّة للمعرفة الدّينيّة، فالخطأ فيها يوجب الضّلال والتيه، ولا تترتّب هذه النتيجة على الخطأ في المعرفة التاريخيّة.

وعلى هذا الأساس يجب الإجتهاد في معرفة الدّين.

ومن جهةٍ أخرى، الدّين مقدّسٌ؛ ممّا ينسحب ذلك على المعرفة الدّينيّة، ومن هنا إكتسب علماء الدّين هذه القداسة.

لكنَّ هذه الصفة لا يتسم بها التاريخ والمؤرّخون، كذلك عادةً ما يعمل علماء الدّين بمعرفتهم الدّينيّة، ولا يوجد إلزامٌ عمليٌّ في المعرفة التاريخيّة، كما أنَّ الناس تتوقع من علماء الدّين الإلتزام بالظواهر الدّينيّة والعمل بها، وليس هناك توقعٌ مماثلٌ بالنسبة لعلماء التّاريخ.

ومن موارد الإختلاف، أنَّ المصدر الموثوق في الإستنباط في دينٍ كدين الإسلام، هو القرآن الكريم النصّ المنزّل من الله والمنزّه عن التحريف، بينما لا نجد مثل هذا المصدر الموثوق للتمسّك به في تحليل الحوادث.

هذه المسائل أدّت الى تكوين قناعةٍ قائمةٍ على أنَّ الفائدة الدنيوية والأخروية من صرف العمر في معرفة الدّين غير قابلةٍ للمقارنة مع الدّراسات التاريخيّة؛ فإنَّ دراسة حياة الماضين كالإسكندر وجنكيز خان المغولي، وآقا خان قاجار، وناصر الدّين شاه وأمثالهم، لا يمكن أن تقارن بدراسة وتفسير آيات القرآن الكريم والحديث، فالأولى هدرٌ للعمر والوقت، والثانية ذاتُ أهميّةٍ بالغةٍ وعبادةٌ، فكيف يمكن المساواة بين القصص والأساطير مع التأمّل والتدبّر في الدّين؟ وقد دعانا الله بوضوحٍ إلى تعلّمه وبذل العمر في طلبه ﴿ **فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[٣] .

أوجه التشابه بين المعرفة الدينية والمعرفة التاريخية

وعلى خلاف النظرة الأولى التي قادتنا إلى القول بإستقلال كلٍّ من هاتين المعرفتين عن بعضهما، وأنَّ المعرفة التاريخيّة لا تحظى بأهميّةٍ، فإنَّ التدبّر فيهما يقود إلى إكتشاف بعض وجوه الإرتباط والإشتراك، ذلك الإرتباط الذي يزيد من التأمّل في عمقهما، ويرشدنا إلى نوعٍ من الإنسجام والتناغم في كثيرٍ من مسائلهما. وفي مستقبل البحث نحاول دراسة هذه الوجوه وهذا الإرتباط بينها.

اهتمام التّاريخ بالدّين

الدّين من الموضوعات المهمّة التي لها تأثيرٌ كبيرٌ على حياة النّاس والوضع الإجتماعي على مدى الزمان، وهو سببٌ لوقوع تحوّلاتٍ مهمّةٍ في تاريخ حياة البشريّة، ولا يملك أحدٌ إنكار وإغفال تأثير الأنبياء والرّسل على تحوّلات التاريخ، كالنبيّ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدٍ صلى الله عليه وآله؛ ومن هنا فالدّين والفكر الدّيني كان له الأثر البالغ في صياغة الكثير من الوقائع التاريخيّة، وساعد على إيجاد تحوّلاتٍ كبيرةٍ وواسعةٍ في الحياة البشريّة؛ وهذا الأثر الواسع هو الذي حدى بالمؤرّخين في تحليل المعرفة التاريخيّة إلى القول بدور وأهميّة الأديان؛ ولذا نادراً ما نرى كتاباً تاريخيّاً لم يعقد فصولاً للبحوث الدّينيّة.

إذن، فالدّين كان له التأثير الكبير في الحياة الإنسانيّة، ليس في مقطعٍ تاريخيٍّ بعينه، بل في جميع الأدوار التاريخيّة.

وعلى هذا الأساس، فهو من جملة العوامل المهمّة التي يجب أن تكون حاضرةً في كلّ توصيفٍ وتحليلٍ تاريخيٍّ.

اهتمام الدّين بالتّاريخ

كما أنَّ للدّين حضوراً واسعاً في التّاريخ - والذي من أجله إهتمّت المعرفة التاريخيّة بدور الدّين في حياة الإنسان- كذلك الدّين والمعرفة الدّينيّة تؤكّد دائماً على أهميّة التّاريخ وضرورة إعطاءه وزناً وقسطاً من الإهتمام، وقد أمتزجت كثيرٌ من الرسالات السماويّة والنصوص الدّينيّة بالمباحث التاريخيّة، وبأدنى تأملٍ في الكتب السماويّة القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرها، يتّضح بجلاءٍ إهتمام هذه الكتب بالتّاريخ، فالتوراة مليئةٌ بالمسائل التّاريخيّة من سفر التكوين إلى بقيّة المواضيع، ففي كلّ مكانٍ منه تجد حديثاً عن الأيام الخالية على نحو يمكن القول معه بأنَّ التوراة عبارةٌ عن تاريخ موسى وبني إسرائيل.

القرآن والتّاريخ

للقرآن أيضاً إهتمامٌ خاصٌّ بالتّاريخ، والآيات الخاصّة بالتّاريخ في القرآن من الكثرة بمكانٍ بحيث لا تجد موضوعاً آخر بهذه الأهميّة في هذا الكتاب السماوي، فالكثير من آيات القرآن تاريخيّةٌ ، وقليلاً ما تجد سورةً من السور لا تعطف آياتها الإلهيّة الأذهان إلى الماضي، فالقصص القرآنيّة كثيرةٌ، بل تكرّرت عدّة مراتٍ في كتاب الله، فالقرآن الكريم قد ذكر موسى وقومه في أكثر من مئةٍ وثلاثين مرّةً، كما تكرّرت مراراً قصص الأنبياء الآخرين في القرآن: كنوحٍ وإبراهيم وأقوامٍ كعادٍ وثمود، وحيث إنَّ الناقل لتلك القصص في القرآن الكريم، هو الله الحكيم، فلا شكّ أنَّ الحقَّ تعالى يستهدف من هذا النقل الواسع للتّاريخ أهدافاً خاصّةً تقع في إطار الهداية، وقد ذكر العلماء بعض الأهداف من وراء ذكر التّاريخ والقصص في القرآن، ويمكن تلخيصها في: التعليم والتربية، والإعتبار من أخبار الماضين، وإثبات نهج الأنبياء الواحد في

أقوالهم وأفعالهم، وإظهار حاكميّة الإرادة الإلهيّة على التاريخ وحياة الماضين، وتطمين النبيّ وزرع الأمل في نفوس المؤمنين، وإثبات الرسالة والوحي عبر سرد النبيّ الأميّ لقصص الماضين، وبيان النصر النهائي للأنبياء وهلاك المكذّبين، وبيان النعمة الإلهيّة الخاصّة بعباده الصالحين وغيرها من الأهداف والغايات(ر معرفت، :٢٨١، ملبوبي : ١٠٤-١١٨، كرمي فريدني : ٧٧)

وبغض النَّظر عن الأسباب الآنفة، فإنَّ ما يبدو هو أنَّ العلّة الأساسيّة للنقل التّاريخي في القرآن التناغم والإنسجام بين التّاريخ والقرآن الكريم وكثيرٍ من التعاليم الدّينيّة، فلو فهمنا المعرفة التاريخيّة جيداً واستوعبناها بشكلها الصحيح، لوجدناها توصل إلى قناعةٍ بأنَّ الدّين بصدد إيجاد هذه المعرفة في بعض تعاليمه ومقولاته، فإذا كان أهمَّ مقولات الدّين هو بقاء الله وفناء المخلوقات ومنها الإنسان «يَا مَنْ هُوَ يَبْقَى ويَفْنَى كُلُّ شَيْءٍ» وقوله تعالى ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ﴾[٤]، فالتّاريخ كفيلٌ بإثبات هذه المقولة؛ لأنَّ التأمّل في أحوال الماضين وأخبار الغابرين، يفضح ضعف الإنسان ويؤكّد فنائه، ويخرجه من غروره وتكبّره، ويجعله يسجد لذات الله الباقية.

إذن، بسبب هذه المقولة تنفتح لنا آفاق التدبّر في التّاريخ، الأمر الذي نظمه الشعراء في شعرهم.

والقرآن الكريم في الواقع نقل التّاريخ لهذا السبب، فهذا الكتاب المقدّس وبصرف النَّظر عن القصص التي يسردها، فإنَّه يدعو دائماً إلى التفكّر في أخبار الماضين، ويؤكّد على أنَّ التّاريخ يمنح الإنسان نظرةً عميقةً ويبصره بالأمور، وما يبدو لنا أنَّ السبب الرئيسيّ في ذكر القرآن للتّاريخ بهذا الحجم ودعوته إلى التدبّر في أخبار الماضين عبارةٌ عن:

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقَصْرٍ مَشيدٍ*أَ فَلَمْ يَسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ولكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٥].

وهنا يجب القول بأنَّ دعوة القرآن إلى التدبّر في التاريخ مبتنيةٌ على وجود خصائصَ مشتركةٍ بين المجتمعات الإنسانيّة؛ فمع عدم وجود هذا المشترك، يصبح هذا التأمّل عديم الفائدة، (إنَّ النَّظر بصورةٍ مجملةٍ للقرآن الكريم يبني قناعةً قائمةً على أنَّ هذا الكتاب ينطوي على سلسلةٍ من القوانين التكوينيّة والتشريعيّة المشتركة بين جميع المجتمعات، وأخذ الإعتبار والإتّعاض من المجتمعات السابقة مفيدٌ وممكنٌ في حالة كون الواقعة التاريخيّة ظاهرةً غير منحصرةٍ بمجتمعٍ خاصٍّ، بل يمكن أن تتكرّر في كلِّ مجتمعٍ آخر)[٦].

الإمام علي عليه السلام والمعرفة التاريخيّة

لأجل هذا الوعي والعبرة اللذين تفرزهما معاينة التّاريخ والتأمّل في وقائعه أوصى قادة الدّين بمطالعته والتدبّر فيه، ويؤكّد الإمام علي عليه السلام على هذه المسألة حتّى أوصى إبنه بقوله:

«أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّره فَجَائِع الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ مَا فَعَلُوا عَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيل قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ.فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلاَ تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ»[٧].

وفي هذه الرسالة نفسها، يقول عليه السلام عن نفسه:

«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ».

أمَّا في خطبه عليه السلام فقد تعرّض إلى التّاريخ وإنصرام الزمان، ومسألة الإعتبار من ذلك:

«أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجَر، وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلَفِ الباقِي لاَ يَبْقَوْنَ»(٨).

وقال في خطبة أخرى له عليه السلام:

«أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا الأُلُوفَ، وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِن؟»(٩).

التشابه المنهجي بين المعرفة الدينية والتاريخية

هناك تشابهٌ بين المعرفة الدّينيّة والتاريخيّة من زوايا أخرى، وهناك أيضاً عواملُ أدّت إلى تقاربهما، ومن تلك الزوايا المهمّة في تشابه تلك المعرفتين هو الإستناد إلى نقل الماضين وروايتهم، فلاشكَّ في أنَّ المعرفة التاريخيّة لا تتشكّل دون واسطةٍ نظراً إلى تحقّق الحوادث التاريخيّة في الماضي السّحيق أو القريب، ووجود فاصلةٍ زمانيّةٍ بين الباحث في التّاريخ وبين الوقائع والحوادث، فإنَّ

إستحصال تلك الحوادث من دون واسطةٍ والإطّلاع عليها مباشرةً، أمرٌ مستحيلٌ، فينبغي على الباحث أن يستند في ذلك إلى ما لديه من نُقُولٍ ومستنداتٍ تاريخيّةٍ. وهذا الأمر متحقّقٌ في المعرفة الدّينيّة أيضاً أو في قسمٍ منها بالحدّ الأدنى، بمعنى أنَّه وبمرور الزمان ستقع فاصلةٌ زمانيّةٌ بين عصر ظهور الأديان ونزول الوحي وعصرنا، بوصفنا باحثين في السّنة والوحي؛ لذا لابدّ من الرجوع في قسمٍ من المعارف الدّينيّة - كالسنة مثلاً- إلى روايات السابقين ونقلهم. إذن، فلابدّ من الإستناد في قسم من المعارف الدّينيّة كالسّنة على رواية السابقين ونقلهم، وكذلك القرآن الكريم- وإن كان من حسن الحظّ أنَّه لا يوجد إختلافٌ حول نصّه- فإنَّ فهم آياته وتفسيرها أيضاً يرتبط بمعرفة الماضي وعصر النزول والإعتماد على قرائن أسباب النزول ومعاني المفردات وترتيب النزول وأمثال ذلك.

وعلى هذا الأساس، فالمعرفة الدّينيّة كالمعرفة التّاريخيّة تعتمد على النقل في بعض مواردها ومسائلها، ولذلك تتشابه منهجيّاً مع المعرفة التاريخيّة (إنَّ أبرز علمين إسلاميين يعتمدان على الرواية بشكلٍ أساسيٍّ هما علم التّاريخ والسيرة وعلم الحديث)[١٠]، وعلى هذا يمكن القول بأنَّ العوامل المؤثّرة على النقل كصدق الرواة وكذبهم، ومستوى الذاكرة، والأجواء السياسيّة والثقافيّة، يمكن أن تؤثّر على كلا المعرفتين، وهذا يقودنا إلى مسألةٍ وهي أنَّه بالنَّظر إلى إمكان خطأ بعض المنقولات وتعرضها للتحريف، فمن الضرورات الأوليّة للمعرفة الدّينيّة والتاريخيّة هي عدم الإعتماد على كلِّ نقلٍ، وتمحيص النقل الصحيح عن غيره. نعم، الفاصلة الزمانيّة تسبّب الكثير من المصاعب كتغيير معاني الألفاظ للنقول الأولى، وحذف بعض الشواهد والقرائن المتّصلة

بالنقل وغيرها، ويترتّب على ذلك صعوبة تحقّق معرفةٍ صحيحةٍ خاليةٍ عن الإشكال في كلا المعرفتين، ممَّا يدعو إلى إجتهادٍ ثابتٍ وواعٍ، وكما قال استنفورد: إنَّ العلّة الرئيسيّة لكثيرٍ من العقد والصعوبات هو الزمان[11]، ومن هنا يجب على العلماء البحث عن الغثّ والسمين من الروايات وبذل الوسع في تنقيتها وتنقيحها، فإنَّ التسرّع في إبداء النَّظر أو غضَّ النَّظر عن مشكلات النقل يؤدّي إلى أضرارٍ مختلفةٍ في كلا هذين الحقلين من حقول المعرفة، وهو أيضاً مانعٌ عن الوصول إلى الحقيقة.

آفات المعرفة الدينية والتاريخية المشتركة

قد تبتلي تلكم المعرفتان بآفاتٍ يتعرّض لها موروثهما نتيجةَ عامل الزمان والسلطة والآراء والمتغيرات الإجتماعيّة.

ومن هذه الآفات؛ السطحيّة والحكم على الظاهر والعقل الجمعي، مضافاً إلى أنَّ الدّين والتّاريخ يتمايزان في جوانب مختلفةٍ كالأصول الأساسيّة والصور والفروع غير الأساسيّة، ففي المعرفة الدّينيّة يمكن أن يكون النَّظر إلى الله والإنسان والمجتمع والهدف من الخلقة وفلسفة الدّين، سطحيّاً أو عميقاً، والمعرفة التّاريخيّة كذلك يمكن النَّظر إلى الحوادث بشكلها الظاهري ويمكن الغوص في عمقها وفلسفتها.

ويمكن أن تتأثّر كلا المعرفتين بالمناخات السياسيّة والاجتماعيّة النابعة من القوّة والنفوذ؛ بمعنى تصوير الدّين والتّاريخ بما ينسجم مع الحكم وحاجاته ومتطلباته؛ وهذا يتمّ إمَّا بالضغط من السلطة أو التزلّف إلى السلطة من أجل العطاء والهبات.

ومن الآفات الجزميّة والقطعيّة الأخرى لهذين الحقلين المعرفيين؛ وهو أن

يكون هناك تصورٌ خاصٌّ عن دينٍ ومذهبٍ يفرض نفسه بصورةٍ رسميّةٍ وينفي ما دونه من التصوّرات، ذلك التصوّر الذي يطرد كلّ تصورٍ منافسٍ له، ويعتقد بتملّك الحقيقة المطلقة، ويغلق كلَّ بابٍ للتجديد والتطوير.

ويمكن أن تؤثّر المحاورات والتيارات الفكريّة والعلميّة لكلِّ عصرٍ على المعرفة الدّينيّة والتاريخيّة، ففي عصرنا يمكن أن نفرض ذلك في الآراء الفلسفيّة وعلم الإجتماع وعلم الإنسان والمذاهب الفكريّة كالحداثة وما بعد الحداثة والماركسيّة والوضعيّة والعلمانيّة والإتّجاهات الفكريّة الأخرى.

وفي الماضي التيارات المتمثلة بالنزعة العقليّة الإفراطيّة، والتصوف والموروث الروماني والإيراني وغيرها، ولا يعني أنَّ ما ذكرناه تحقّق في الماضي وإنتهى، بل له آفاتٌ محتملةٌ يجب أخذها بنظر الإعتبار.

حاجات المعرفة التاريخيّة إلى الدّين والمعرفة الدّينيّة

بعد ذكر الوجوه المشتركة بين المعرفة الدّينيّة والتّاريخيّة، نأتي الآن إلى ذكر حاجة بعضهما للبعض الآخر، ونبدأ بحاجة المعرفة التاريخيّة إلى الدّين والمعرفة الدّينيّة.

أ. المعرفة التاريخيّة علم يعنى بذكر ماضي الإنسان، وعلم التّاريخ يحاول أن يحلّل ويصف فقرات هذه القصة بصورةٍ جيدةٍ، والتّاريخ أيضاً هو قصّة تعامل الإنسان مع المحيط الجغرافي والإجتماعي والسياسي وغيره، فالتّاريخ ليس علم دراسة الجغرافيا والبيئة من ماءٍ وهواءٍ وطبيعةٍ، فمن دون وجود الإنسان لا يكون هناك تاريخٌ.

وبناءً على ذلك، يمكن القول بأنَّ اللاعب الأساسي في التّاريخ وتحوّلاته هو نفس الإنسان؛ فإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ الخطوة الأولى في الدراسات

التاريخيّة وفهم ماضي الحياة الإنسانيّة، يجب أن تستند إلى فهم ذات الإنسان وخصائصه وأهدافه وحاجاته.

وبعبارةٍ أخرى: إنَّ العنصر المستقل في صنع التّاريخ هو الإنسان، وإستكناهه ومعرفته شرطٌ لفهم تاريخه أيضاً، والمعرفة التّاريخيّة في مجال الأنثروبولوجي بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الدّين والمعرفة الدّينيّة؛ لأنَّ معرفة الإنسان وخصوصياته الجسميّة والروحيّة ليس لها طريقٌ إلَّا خالقه، فالإنسان لا يمكنه فهم نفسه فهماً تاماً، وإذا كان هناك نظريّاتٌ تفترض ذلك فهي ناقصةٌ بلا أدنى شكٍّ، فهنا يجب أن تتلمذ المعرفة التّاريخيّة على الدّين والمعرفة الدّينية، فيجب أوّلاً معرفة خصوصيّات بطل القصّة ثمّ دراسة سلوكه وتعامله مع بيئته، وعلى أساس ذلك، فإنَّ كلّ معرفةٍ تاريخيّةٍ، قائمةٌ على نوعٍ من الأنثربولوجيا، وفهم التّاريخ منوطٌ بفهم الإنسان، ومن العجيب عدم وجود درسٍ أنثربولوجيٍّ في قسم التّاريخ وحتّى العلوم الإنسانيّة كعلم الإجتماع والعلوم السياسيّة وغيرها من الإختصاصات، وهذا نقصٌ كبيرٌ في العلوم الإنسانيّة؛ لأنَّ فهم هذه العلوم الإنسانيّة - كما مرّ- مبنيٌّ بالدرجة الأولى على فهم ومعرفة الإنسان، تلك المعرفة التي يجب أن تتحقّق بصورةٍ صحيحةٍ.

فإذا كانت الملائكة في بداية الخلق قد أخطأت في معرفة الإنسان معتبرةً أيّاه موجوداً شريراً، فإنَّ الله إعتبر ذلك خطئاً في فهم المخلوق، ولاشكَّ أنَّ الإنسان أعجز من أن يعرف نفسه ويحتاج إلى ما هو أعلى مرتبةً في ذلك؛ ومن هنا فالمعرفة التاريخيّة ليست بشيءٍ ما لم تلحظ الأنثربولوجي الدّيني، ويحتمل أن يكون هذا هو السبب في ذكر القرآن في مواطن عديدة صوراً من سلوك الإنسان؛ بحيث تشكّل خصائص الإنسان واحدةً من أهداف نقل القصص القرآني[١٢].

ب. إذا كان التّاريخ يتكفّل سرد قصّة الإنسان، فلا يمكن أن تكون هـذه القصّة بلا بدايةٍ، وهنا نطرح هذا السؤال: كيف للمعرفـة التاريخيّـة الحـصول على نقطة بداية الإنسان ، فالعلم العاجز عن إدراك حوادث عدّة قرونٍ سابقةٍ، والأعجز عن ذلك كلما إمتدّ الزمان، كيـف لـه إسـتيعاب بدايـة قـصّته، وقـد تـسبّب هـذا في تـصدير الكتـب التاريخيّـة لقـصّة الإنـسان، بإنـسان الغـار والكهوف، مع أنَّه في الواقع قد حُذفت بداية القصّة.

ج. المعرفة التاريخيّـة غـير قـادرة أيـضاً عـلى إسـتيعاب نهايـة الإنـسان؛ فالمؤرّخون الذين يعتبرون أنَّ إدراك الزمن المعاصر غير ممكـنٍ، كيـف يتـسنى لهم توصيف نهاية القصّة، فلو قيل: أنَّ المؤرّخ ليس لـه علاقـةٌ ببدايـة ونجـاز التّاريخ.

فنقول: هو مجبورٌ على إبداء رأيه بهذا الخصوص؛ لأنَّ فهم القصّة منعقـدٌ على إدراك بدايتها ونهايتها، وهنا المعرفة التاريخيّة ولأجل كتابة قصّة الإنـسان وحادثة الخلق وفلسفته ونهاية هذه القصّة، بحاجةٍ ملحّـةٍ إلى الـدّين والمعرفـة الدّينيّة.

د. المعرفة التّاريخيّة وهي تدرس قصّة حياة الإنسان وتعامله مع محيطه، تبحث عن العوامل المختلفة المؤثّرة في التّاريخ، وكما قـال زريـن كـوب : (عمـل المـؤرخ الأساسي في كلّ حدثٍ، هو دراسة وإكتشاف علاقات العلّة والمعلول فيه)[١٣].

ولأجل بلوغ هذا الهدف، يجب أوّلاً بحث العوامل الأساسيّة المؤثّرة على الوقائع التاريخيّة والإجابة على الأسئلة التالية:

هل للتّاريخ مسيرٌ خاصٌّ؟

ماهي العوامل الرئيسيّة المؤثّرة في حركة التّاريخ العامّة؟

ماهي السنن والأصول الحاكمة على حركة التّاريخ العامّة؟

ماهي العوامل المحرّكة للتّاريخ؟

ما هو الطريق الذي يسلكه التّاريخ؟

هذه الأسئلة العامة تُطرح في مجال الفلسفة النظريّة للتاريخ، ولاريب في أنَّ جواب هذه الأسئلة خارجٌ عن مجال عمل المؤرّخين.

نعم، حاول بعض الفلاسفة الإجابة عليها غير أنّهم كالقطرة التي تنساب في بحر هذا العالم العظيم، غير قادرين على تشخيص مسيرة هذا البحر وكيفيّته، ولا تعدو أجوبتهم كونها ظنوناً وأوهاماً، في حين يبدو أنَّ هذا النوع من الأسئلة العامّة في فلسفة التاريخ لا يجيب عليها سوى الدّين والمعرفة الدّينيّة؛ وعلى هذا الأساس، فإنَّ المعرفة التاريخيّة تحتاج إلى المعرفة الدّينيّة في هذا الأمر.

هـ. التّاريخ يرتبط بسلوكيّات وأفعال الإنسان المختلفة، والمؤرّخون في توصيفهم وشرحهم للوقائع التاريخيّة وبيان سلوك الناس، يثنون على بعضها ويذمّون البعض الآخر، لأنَّ كلّ توصيفٍ تاريخيٍّ يرافقه نوعٌ من التقييم، فإذا أردنا أن نحكم على سلوك الماضين، فأيّ فعلٍ نمتدح وأيّ فعلٍ نذمُّ؟ فهل مجرّد النصر والحصول على السلطة والوصول إلى المقاصد كيفما كان، يستحق منّا المدح، وأنَّ الهزيمة تستحقُّ الذمّ؟ وماهي المعايير والضوابط الحقيقيّة للمدح والذمّ.

هنا أيضاً يمكن أن تكون المعرفة الدّينيّة مقصداً للمؤرّخين في ذلك، وكم هو جميلٌ ما ورد في القرآن الكريم في ردّ القيم القبليّة والقوميّة الخاطئة، وجعل ملاكاتٍ راقيةٍ في الحكم من قبيل التقوى والعمل الصالح، إذ قال عزّ من قال

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ﴾(١٤).

و. بالنَّظر إلى تدخل عللٍ وعواملَ ماديّةٍ وطبيعيّةٍ واسعةٍ في تحقّق الحوادث، فقد يتولّد تصورٌ خاطئٌ لدى أصحاب التحليل التّاريخي مبنيٌّ على عدم وجود عوامل مؤثّرةٍ في التاريخ سوى العوامل المادّيّة، وهذا ما قد يفضي إلى نوعٍ من النَّظر المادّي إلى التّاريخ وفي الوقت الراهن، ساهمت نظريّات الوضعية في إيجاد وتقوية مثل هذه الآراء بقوةٍ، ولكنَّ الرجوع إلى النصّ الدّيني والإستماع إليه في كيفيّة التحليل التاريخي، يجنّب المؤرّخين التورّط في مثل هذه الآراء الفارغة، فالقرآن الكريم يعتمد العامل الغيبيّ إلى جانب العامل في التحليل التّاريخي، فحين يتحدّث عن معركة بدرٍ يخبر عن نزول ألفٍ من الملائكة لمساعدة جيوش المسلمين ﴿إِذْ تَسْتَغيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفينَ﴾(١٥).

وفي نفس هذه السورة يتحدّث الله عزَّ وجلَّ عن يده الغيبيّة بوصفها العامل الأساسي في الإنتصار. ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾(١٦).

ز. معلوماتنا التاريخيّة ناقصةٌ عن السابقين وجميع الأقوام والمجتمعات، فمراجعة النصوص الدّينيّة كالقرآن الكريم يمكنه أن يوفّر لنا بعض المعلومات في هذا المجال، فإنَّ معلوماتنا عن (العرب البائدة) – وهم قوم عادٍ وثمود– حصلنا عليها من القرآن الكريم، مضافاً إلى أنَّ مراجعة القرآن الكريم ذلك النصّ الدّيني السالم عن التحريف، يجنبنا الوقوع في مشكلة التحريفات المختلفة التي وقعت على طول الزمان في بعض قصص الماضين

مثل قصص الأنبياء وغيرها، على نحوٍ يمكن أن ندّعي أنَّ واحداً من الأهداف التي توخّاها الله في ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم، هو تصحيح قصصهم المحرّفة في الكتب الأخرى.

ح. نظراً إلى وحدة المنهج في المعرفة التّاريخيّة والمعرفة الدّينيّة، وأنّهما وردانا عبر النقل، فعلم التاريخ يمكن أن يستعين بالكثير من الأصول والقواعد والدقّة التي إعتمدها علماء الدّين في دراساتهم، ففي علم الحديث مثلاً هناك الكثير من البحوث القيّمة في الحديث وأنواعه من الصحيح والحسن والمرسل وغيره، وهناك علم الرجال والدراية، ممّا يمكن الإفادة منها في كثيرٍ من البحوث التّاريخيّة، وعلاوةً على ذلك يوجد الكثير من بحوث علم أصول الفقه تستفيد منها المعرفة التّاريخيّة، وإلى جانب ذلك فإنَّ الدقّة الأدبيّة والصرفيّة والنحويّة لدى علماء الدّين تنفع الباحثين في التّاريخ.

ط. تتمّ الدراسات التاريخيّة على أساس الأهداف والغايات، وهذه الدراسات قد تكون بقصد الإطّلاع على أحوال السابقين صرفاً، وقد تكون بهدف الإفادة من تجارب الماضين: أو بقصد التسلية وملأ الفراغ، وتوجد أهدافٌ أخرى تصلح أن تكون أهدافاً للدّراسات التاريخيّة.

ومن جهةٍ أخرى، فالمعرفة الدّينيّة وخاصّة القرآن الكريم، تعمل على تقديم المساعدة للمعرفة الدّينيّة عبر تعيين الغاية والهدف في البحوث التاريخيّة.

مضافاً إلى ذلك، لا ريب في وقوع حوادث كثيرةٍ في الماضي ليست متساويةً في الأهميّة، ولا يستطيع المؤرّخون تناولها بأجمعها، بل هم مجبورون على الأخذ بقسمٍ منها وترجيح بعضها على البعض الآخر، والسؤال هو:

ماهي الضابطة التي يجب إعتمادها في الأخذ بالموضوعات التّاريخيّة؟

والجواب: إنَّ المعرفة الدّينية تقدّم ملاكاتٍ أساسيّةً تساعد المعرفة التّاريخيّة في إختيار الموضوعات التاريخيّة القيمة، وتكون قد تخلّصت من الموضوعات عديمة الأهميّة أو قليلة الأهميّة.

حاجات المعرفة الدينية إلى التاريخية

وجود التشابه بين المعرفة الدّينيّة والمعرفة التاريخيّة جعل علماء الدّين بحاجةٍ أيضاً إلى مراجعة التّاريخ ومؤلّفات المؤرّخين لكي يستفيدوا من الموارد النافعة فيها، وإليك بعض العوامل التي جعلت من علماء الدّين يولون المعرفة التاريخيّة إهتماماً خاصّاً.

أ. وجود التّاريخ بشكلٍ واسعٍ في التعاليم الدّينيّة، كالقرآن الكريم الذي يفترض أن يكون نموذجاً لمن يتّبعه، ولاشكّ أنَّ الله الحكيم له أهدافٌ متعدّدةٌ في هذا التوظيف الكبير للتاريخ الذي يجب أن يكون مورداً لإهتمام علماء الدّين.

ب. يعتبر القرآن الكريم أهمّ مصدر في دين الإسلام المقدّس؛ إنطلقت منه أساس المعرفة الدّينيّة للمسلمين، وقد نزلت آيات هذا الكتاب في زمانٍ ومكانٍ خاصَّين، ومعرفة ظروف نزول الآيات من العوامل المهمّة في تفسيرها (والمقصود من ظرف النزول سبب وثقافة وزمان ومكان النزول، وهذه الأمور مؤثرةٌ في دلالة الآية ومن قرآئنها المتّصلة؛ لذا يجب أخذها بنظر الإعتبار)[١٧]، وعلى هذا الأساس أُلّفت الكثير من الكتب في موضوع أسباب النزول، ويعتقد البعض من مؤلّفي هذه الكتب بأنَّ معرفة تفسير الآيات غير ممكنٍ دون معرفة شأن النزول[١٨].

وفي أهميّة فهم ظرف النزول في إدراك دلالة الآية وتفسيرها، يقول أمير البيان عليه السلام: «مَا نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ نَزَلَتْ وفِيمَنْ نَزَلَتْ وفِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ وفِي سَهْلٍ نَزَلَتْ أَوْ فِي جَبَلٍ نَزَلَتْ»(١٩).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ تأكيدنا على ضرورة معرفة عناصر الزمان والمكان المؤثّرة في فهم القرآن، لا يعني أبداً تقيد الأحكام الإلهيّة بالزمان أو المكان وعدم عموميتها.

هذا ما أدّى إلى الإهتمام بالتّاريخ وعناصر الزمان والمكان التي تؤثّر في فهم القرآن، ولذا فإنَّ مفسّري القرآن الكريم كانوا يولون بحث تقسيم السُّوَر إلى مكيّةٍ ومدنيّةٍ إهتماماً خاصّاً.

ومن جهةٍ أخرى فقد فرض آية الله (محمد هادي معرفت) فوائد كثيرةً لبحث المكّيّ والمدنيّ في القرآن منها: معرفة تاريخ تسلسل الآيات والسُّوَر، والتدريجيّة في نزولها، وفهم مضمون الآية في الإستدلالات الفقهيّة وإستنباط الأحكام الشرعيّة، ومعرفة الآيات التي يُستشهد بها في الإستدلالات الكلاميّة، ومعرفة الناسخ والمنسوخ(٢٠).

ومضافاً إلى ما تقدّم، فقد سعى بعض الباحثين إلى إشاعة فكرة أنَّ تقسيم السُّوَر المكّيّة والمدنيّة مبنيٌّ على أساسٍ تاريخيٍّ، وهم بذلك لم يريدوا تحديد ترتيبٍ تاريخيٍّ للسُّوَر المكّيّة والمدنية فحسب، وإنّما أرادوا تحديد زمانٍ دقيقٍ لنزول الآيات، وهذا التصوّر للقرآن بنهجٍ تاريخيٍّ، أطلقوا عليه (تأرخة القرآن). (ر.ك: نكونام/ ١٣٨٠، بازركان، ١٣٧٨)، وهؤلاء الكتّاب يعتقدون بأنَّ هذه النَّظرة منهجٌ جديدٌ في تفسير القرآن يوضع أمام الجميع، إذ يمكن تسميته منهج التفسير التّاريخي للقرآن، وهو أفضل منهجٍ لتفسير

القرآن وفوائده جمّةٌ[٢١].

ج. إنَّ المعرفة الدّينيّة بحاجةٍ إلى المعرفة التاريخيّة في إطار معرفة وتفسير السّنة؛ وهي المصدر الثاني للمعرفة الدّينيّة؛ فمعرفة التاريخ في عصر الرسول وما بعده، لها دورٌ أساسيٌّ في تمحيص السّنة الصحيحة من غير الصحيحة، بحيث يمكن القول بأنَّ المعرفة الدّينيّة تحتاج إلى التاريخ في فهم السنة أكثر ممّا تحتاجه في فهم القرآن؛ لأنَّ المسلمين لا يختلفون على نصّ القرآن الكريم، وإنَّما يختلفون في فهمه، أمَّا السنة فليس فهمها وتفسيرها منوطاً بمعرفة ظرف الصدور، بل معرفة أصل السنة الصحيحة من غير الصحيحة يحتاج أيضاً إلى المعرفة التاريخيّة، إذ فهم التّاريخ ضابطةٌ قويّةٌ لمعرفة الرجال ورواة الحديث من جهةٍ، ومعيارٌ لمعرفة دراية الحديث من جهةٍ أخرى، وبناءاً على ذلك، فالإفادة من المعطيات التاريخيّة وعرض الحديث على التاريخ من أصول نقد الحديث[٢٢].

د. الإهتمام بالتّاريخ لا تقتصر أهميّته على تفسير القرآن وفهم الحديث، بل تتعدّى إلى الإجتهاد في الأحكام الدّينيّة، فالإمام الخميني قدس سره كان من جملة القائلين بالدور الأساسي لعنصريّ الزمان والمكان في عمليّة الإجتهاد، ولاشكّ أنَّ معرفة الزمان والمكان هو معرفة التاريخ [٢٣]. والظاهر أنَّ هذه المسألة ترتبط بتبدّل الأحكام طبقاً لتبدّل مواضيعها بمرور الزمان.

هـ. أفرزت المعرفة الدّينيّة بحوثاً قيّمةً ومهمّةً في المنهجيّة والميثولوجيا تحتاجها المعرفة التاريخيّة في موارد كثيرةٍ، ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الباحثين في مجال التّاريخ ومن أجل فهم التحوّلات التاريخيّة بالشكل الصحيح وحذراً من الوقوع في الخطأ والتحريف والكذب، إلتزموا ضوابط في منهج البحث

التاريخي، يمكن الإلتزام بها في الدّراسات الدّينيّة.

وبصورةٍ عامّةٍ يمكن الوصول إلى نتيجةٍ مفادها: أنَّ بين المعرفة التّامّة لكلّ مقولةٍ في زماننا ومعرفة تاريخها إرتباطاً حميماً على نحوٍ يكون فهمنا المعاصر لتلك المقولة ناقصاً دون إدراك ظرفها التاريخي، وكذلك بين معرفة كلّ دينٍ ومعرفة تاريخه إرتباطاً كبيراً، وعلى هذا الأساس ، فإنَّ فهم دين الإسلام بصورةٍ صحيحةٍ مرتبطٌ بمعرفة تاريخ الإسلام وإدراك التحوّلات في عصر الرسول الأكرمُ والعصر الذي تلاه؛ كما أنَّ معرفة الأفكار والأوطان والشعوب والتيارات والأشخاص في الزمان الحاضر منوطةٌ بمعرفة ماضيها.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى نقطتين ليستا ببعيدتين عن محلّ البحث وهما:

أوَّلاً: كما تحتاج المعرفة الدّينيّة إلى اللّغة والأدب، فهي بحاجةٍ إلى التّاريخ، فالإستفادة من التاريخ، أسلوبٌ مناسبٌ جدّاً لنقل المقولات الدّينيّة إلى المخاطب، فالتّاريخ أداةٌ جيدةٌ بيد مبلغي الدّين، كما أفاد القرآن الكريم منه عبر نقل القصص في تمرير الكثير من مضامينه وأهدافه.

ثانياً: التّاريخ كالمرآة يعكس عمل التيارات المختلفة في المجتمع، وبإجراء الدّراسات التاريخيّة يتسنى للتكتّلات والتّيارات وأصحاب الرأي والآخرين معرفة نوع أفعالهم وردّة الفعل التي تحصل جراء ذلك في المجتمع؛ ولذا يجب على المتصدّين للأمور الدّينيّة دراسة الماضي لكي يتاح لهم معرفة نقاط الضعف في تبليغ الدّين والتعامل معها، وإصلاح سلوك أصحابهم، وأحسن شيءٍ في هذا المجال هو معرفة ودراسة المقاطع التاريخيّة التي كان للدّين حضورٌ إجتماعيٌّ رسميٌّ واسعٌ فيها، ففي تاريخ إيران القديمة مثلاً ، تكمن الأهميّة في دراسة عصر الساسانيين الذي كان لدين الزرتشية حضورٌ رسميٌّ

في المجتمع آنذاك، وتكمن الأهميّة في تاريخ إيران الإسلاميّة بدراسة الدولة الصفويّة الذي كان مذهب التشيّع هو الدّين الرسمي للدولة، وكذلك الأمر بالنسبة لتّاريخ أوربا، فإنَّ مطالعة القرون الوسطى وعصر الإصلاح الدّيني، يحظى بأهميّةٍ كبيرةٍ.

وهذا العلامة الأميني الذي كان عالماً دينيّاً مشهوراً، وأفنى عمره في البحوث الدّينيّة التاريخيّة، وكانت نتيجة هذه الجهود هو كتابه القيّم (الغدير)؛ ذكر في مقدّمة هذا الكتاب ما نصّه:

(.... فالتّاريخ إذن ضالة العالم، وطلبة المتفنّن، وبغية الباحث، وأمنية أهل الدّين ومقصد الساسة، وغرض الأديب، والقول الفصل: إنَّه مأرب المجتمع البشري أجمع ...)[٢٤].

النتيجة

١. المعرفة الدّينية والتّاريخيّة من المعارف الإنسانيّة القديمة، وعلى الرغم من وجود الإختلاف بينهما في الموضوع وبعض الخصوصيّات، إلَّا أنَّ هناك مشابهاتٍ كثيرةً.

٢. كان للدّين دورٌ في التحوّلات التاريخيّة، جعل العلماء يهتمون بأثر الدّين في المجتمع وقد كتبوا كتباً لدراسة هذه المقولة، كذلك إهتمّ الدّين والمعرفة الدّينيّة بالتّاريخ، فالقرآن الكريم يتضمّن الكثير من الآيات التاريخيّة، وقليلاً ما تجد سورةً في هذا الكتاب المقدّس خاليةً من آيات التاريخ، كذلك دعى القرآن عدّة مراتٍ إلى التدبّر والتأمّل في أحوال الماضين.

٣. إنَّ ما يحظى بأهميةٍ بالغةٍ في العلاقة بين المعرفة الدّينيّة والتّاريخيّة هو عبارةٌ عن وحدة المنهجيّة، وهذه الوحدة في المنهج جذبت إهتمام الباحثين إلى

هذين الحقلين المعرفيين شيئاً فشيئاً، وبالرغم من وجود هذه الوجوه المنهجيّة المشتركة، إلّا أنَّ هناك آفاتٍ مشتركةً أيضاً وهي الإبتلاء بالسطحيّة والجزميّة وتأثّرهما بالسياسة والأفكار المتداولة.

٤. المعرفة التّاريخيّة بحاجةٍ إلى المعرفة الدّينيّة في موارد عديدةٍ؛ منها نقل بداية قصة الحياة البشرية، والميثولوجيا، والإجابة على الأسئلة الأساسيّة لفسلفة التّاريخ وتقييم المواقف والحوادث.

٥. تحتاج المعرفة الدّينيّة إلى المعرفة التاريخيّة أيضاً في كثيرٍ من الأمور، فهي تحتاج التاريخ مثلاً في معرفة ظرف نزول آيات القرآن، وتشخيص الآيات المكّيّة والمدنيّة، ومعرفة ظروف صدور السّنة والروايات الصحيحة والرواة، والإجتهاد في الأحكام الدّينية.

٦. المعرفة الكاملة عن كلّ دينٍ وتحقّق المعرفة الدّينيّة بشكلٍ تامٍّ مرتبطٌ إلى حدٍّ ما بالمعرفة التاريخيّة، كما أنَّ المعرفة التّامة عن الأمور الأخرى في أيامنا مرتبطةٌ بمعرفة السوابق والتّاريخ.

الختام

المعرفة الدّينيّة والمعرفة التاريخيّة حقـلان مـن حقـول المعرفـة الإنـسانيّة، يتميّزان بتاريخهما المتمادي، وقد حاولنا في هذه المقالة - مضافاً إلى دراسة أوجه الإختلاف بين هذين الحقلين- دراسـة أوجـه التـشابه بيـنهما، حيـث تـشترك المعرفة الدّينيّة مع المعرفة التاريخيّة في أمورٍ مختلفةٍ منها: كونهما نقليـين، وتحقـق موضوعهما في الماضي، واعتمادهما على الروايات.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ للدّين منزلـةً خاصّـةً في التـاريخ، كـما أنَّ للتـاريخ نفس المنزلة في الدّين، وبغضِّ النّظر عن ذلك، يحتـاج كـلُّ واحـدٍ مـن هـذين الحقلين المعرفيين للآخر في أمـورٍ ومـسائل، ويرتبطـان مـع بعـضهما إرتباطـاً وثيقاً، أدّى هذا الإرتباط شيئاً فشيئاً إلى زيادة إهتمام الباحثين بهـذين الميـدانين من المعرفة.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة، ترجمة: الدكتور سيد جعفر شهيدي، طهران، منشورات علمي وثقافي.

٣. ابن حماد الجوهري، ابو نصر اسماعيل، ١٤٢٦ هـ، ق، الصحاح، بيروت، دار احياء التراث العربي، الطبعة الرابعة.

٤. استنفورد، مايكل، در امدي بر تاريخ بزوهي، ترجمة: الدكتور مسعود صادقي، طهران، جامعة الامام الصادق.

٥. اعتصامي، بروين، ديوان، طهران، مطبعة فردين، الطبعة الثامنة.

٦. الامام الخميني، روح الله، صحيفه نور، ج٢١، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الامام الخميني.

٧. الاميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والادب، ج١، قم، مركز الغدير للدراسات الاسلامية.

٨. بازركان، مهدي، بابه باى وحي (تفسير تدبر قرآن بر حسب نزول)، ج١، طهران، مكتب نشر فرهنك اسلامي.

٩. البدري، سامي، المدخل الى دراسة مصادر السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي، بغداد، دار الفقه للطباعة والنشر، الطبعة الثانية.

١٠. البيضاني، قاسم، مباني نقد الحديث، قم، المركز العالمي للدراسات الاسلامية.

١١. توين بي، آرنولد، مؤرخ وتاريخ، ترجمة: حسن كامشاد، طهران، خوارزمي.

١٢. دهخدا، قاموس، طهران، مؤسسة دهخدا.

١٣. رجبي، محمود، روش تفسير قران، قم، بزوهشكده حوزه ودانشكاه.

١٤. زرين كوب، عبد الحسين، تاريخ در ترازو، طهران، امير كبير.

١٥. سعدي، كليات، طهران، امير كبير.

١٦. الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، بيروت، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، الطبعة الثالثة.

١٧. كار أي اج، تاريخ جيست، ترجمة : حسن كامشاد، طهران، خوارزمي.

١٨. كرمي فريدني، علي، اموزهاي از بيام هاي تاريخي قران، قم.

١٩. مجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، ج٣٥، طهران، دار الكتب الاسلامية.

٢٠. مصباح يزدي، محمد تقي، جامعة وتاريخ از ديدكاه قران، طهران، سازمان تبليغات اسلامي.

٢١. معرفت، محمد هادي علوم القرآن، طهران، مؤسسة التمهيد.

٢٢. معرفت، محمد هادي، تاريخ قران، طهران، سمت.

٢٣. ملبوبي، محمد تقي، تحليلي نو از قصص قران، طهران ، امير كبير.

٢٤. نكونام، جعفر، در امدي بر تاريخ كذاري قران، طهران، نشر هستي نما.

الهوامش

(١) دهخدا، ١٣٧٧: ج٨، مادة دين).

(٢) بحار الأنوار ١: ٢٢٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٤) (النحل: ٩٦)

(٥) سورة الحج، الآيتان: ٤٥-٤٦.

(٦) المصباح اليزدي : ١٥٠.

(٧) نهج البلاغة، رسالة رقم ٣١.

(٨) المصدر نفسه، الخطبة: ٩٨.

(٩) المصدر نفسه، الخطبة: ١٨٢.

(١٠) البدري: ١٢١.

(١١) استنفورد: ١٩٠.

(١٢) ر.ك: فجر: ١٥-٢٠.

(١٣) زرين كوب :١٢١.

(١٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(١٥) سورة الأنفال، الآية: ٩.

(١٦) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(١٧) رجبي: ١١٨.

(١٨) المصدر نفسه: ١١٩.

(١٩) البحار: ٣٩٥.

(٢٠) معرفت: ٤٦-٤٩.

(٢١) نكونام: ١٢-١٣.

(٢٢) ر.ك: بيضاني ٣٢ : ١١٧- ١٢٧.

(٢٣) ر.ك: السيّد الخميني ٢١: ٢٨٩.

(٢٤) الأميني: ٣-٤.